خطيئة فوق المشنقة

للكاتبة الالمانية

الزا ايشنجر

ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقي

الكاتبة الالمانية الزا ايشنجر ما تزال على قيد الحياة وقد جاوزت زهرة العمر ولم تعرف بعد طريقه وقصة اليوم لاتمت الى الحرب بصلة مباشرة لكنها من اقوى الدلالات على أسلوبها الذي يحكي كما قال احد النقاد عما للشيء وما عليه وعن الأمس واليوم وعن الممكن والمؤكد جدا مما فهو يجمع الأضداد في شيء واحد . ليس فيه ما يتصل بالتاريخ ولا بعلم النفس وانما هو جماع تشبيهات تحيط بادق واخص الماجريات في حياة الفرد . واول شرط في رأي الناقد الذي أشرنا اليه لفهم الزه ايشنجر أن لا نرد في الخال ما نقراه لها الى ما الفنا قراءته . وحسبنا وهي من عمد الأدب الالماني الحديث ان نرضي رغبة القارىء العربي في تذوق لون شعري من الوان هذا الأدب .

ومن قصصها القصيرة « المشنود الوثاق » و « الأمر المقصوص » و « العلم الخاص » و « اطياف البحر » .

***

أعرب عني ! ما معنى هذه العجلة ؟ كم تراك شاتقا اليوم ؟ ألست آخرهم ؟ ثم ، ماذا يعوم بنفسك وانت تسرع هذا الاسراع ؟ أتريد ان تنام ؟ أنا ايضا يا أخي ، أنا ايضا ، سينام كلانا ، ولن تعشى بعد ذلك أحلامي . انك تبدو وجلا ، ولكنت حليقا أن افرح انا ، وان أستيقظ قبلك . اعرب عني بحيلك ؟

وأنتم يا من تغفون تحت ؟ الى اية اركان تدفعكم ريح الصباح الرقيقة ؟ انه لا تكليف عليكم في يوم تشتد فيه الريح ولا خروج . ألم أكن أنا أيضا لا أكلف

الا يوم تبعث بي امي الى الخارج ؟ لكني راض . وانتم ؟ لا ؟

انكم تلازمون الظل أطول مما ينبغي وهناك في الضياء تحت الا يحيم الظلام ؟ فهلا صعدتم الى لتروا كيف تتحدد الوان ثيابكم ، وكيف يتصبح بياض قمصانكم ويتقد كالنار ؟ تعالوا الى ليرداد اصطرام حدودكم ، ولا تنتظروا حتى تأخذ الشمس ، وقد خنقها العرق ، تتسلل الى اركانكم حميما . انها هنا اكثر بكورا — هنا يكون صحكها صادقا ووضحها ما يزال باردا . هنا تداعب الشمس الريح قبل أن تخنقها هنا تكون الريح ما تزال أختا لها . واني لأقول لكم هنا تكون الشمس ماتزال تهب ، والهواء هو الذي يلتمع . ثم ان اليوم لآخر يوم أيضا ، وان الساعة كذلك لأول ساعة !

دعوا اطفالكم يصيحون واصعدوا الى ! لا تقفوا ساكنين هكذا تحت ! لا تحملقوا في متاهيين هكذا — لقد احرقت اقنيتكم وصوامعكم لكي يسمح لي بالوصول الى هذه الالواح . لقد لبست ليالي كثيرة وحيدا ، وحيدا في كل منها كما تكون الوحدة في قاع البحر . وانتم ؟ هل قتلتم ؟ كلا ؟ هل أضرمتم النار ؟ هل سرقتم ؟ لا شيء أصدق . اذن فعليم حق عليكم الموت اذا كان لا بد من موتكم ؟ اني أعرف لماذا يجب ان اموت ، فاصعدوا بالقد الى ! مازلتم تأبون ؟ لكني أقول لكم ان الالواح سوف تميد بكم اذا حدثتكم أنفسكم بالرقص عليها ، وكل الحبال سوف ترتجي لحظة ان يفرغوا من فصل احسامكم عن المشنقة — وفي عمق الليل تعلق الصرخات بأحلامكم فوق كل الاقنية . افلا ترغبون ؟ الا يحب أحدكم ان يعرف لماذا يموت ؟ هسل اضرمتم النار قبل ميلادكم كي تولدوا للموت ؟ اتسلمون بان امهاتكم حفين عنكم النهاية من قبل وهن في آلام الوضع ؟ انكم لا تجيبون جوابا . انكم تقفون تحت ساكنين كما لو كنتم قد شنقتم بالفعل ، كما لو كنتم في الكثرة بحيث تتواصون فلا تسقط جثثكم هامدة من الموت . الا ما تحركتم ؟

أتسيئم الليل ؟ ان اطفالكم يصرخون فاصرخوا الى منازلكم ، أو فقد يقع أن يضرم أحدهم نارا قبل أن يبلغ من العمر ما يستحق عليه الشنق . اذرفوا كل لهفة من أعينكم قبل أن تروعكم هذه الأعين . اما بكم من شوق الى الصمت الذي ينتظرني ؟ هلا حاولتم ان تشبعوا من جوعكم ؟ عودوا الى منازلكم ! اعصوا في جر ظلالكم !

كم من العمر ما يزال باقيا لكم ؟ كم يوما ؟ كم ساعة ؟ كثير — كثير — كم يبقى منها ؟

أريد أن أساعدكم . فهل لي أن أقرأ أكفكم ؟ هل لي أن أحصي الصلبان على جباهكم ؟ أيهذا القتلة الذين لم تقتلوا قط ، ومضرمو النار الذين لم تحرقوا قط ، والنصوص الذين لا يحرؤون على السرقة — هذوا كم يبقى لكم من العمر انت ! يامن تقف تحت ، وانت ! يا هذا الواقف عن يساره ، اياك أعني . كم سنة تحيا فوق ما حييت ؟ لا تعلم ؟ فهل أبيتك أنا ؟ سنة — ثم هذا الذي الى اليمين ، كم ساعة ؟ ساعة ! والذي الى جانبي ، كم لحظة ؟ لحظة واحدة أقول لك . انكم لا تصدقوني ، أقسم لكم بالأرض التي تنسحب من تحت قدمي ، وبالهواء الذي يكتنفه الضياء الى حد الا تطيع

وثنائي المطلمتان في استشاقه طويلا ، وبالسماء التي تقع تحت قدمي بمجرد أن تميد الالواح ، ان احدا منكم لن يعيش لنصف صيحة طائر اطول مما أعيش ، ان أحدا منكم لن يعيش أطول مما كتب له لحظة أخرى .

حاولوا بربكم وامضوا الى بيوتكم ! احشوا أقدامكم ما استطعتم عستقى كل خطوة هي آخر خطاكم ، وكل حفنة من الهواء هي آخر ما تتنفسون ، وكل مرة ترفعون فيها رؤوسكم المحمومة عن وسائدكم هي آخر مرة . احصوا ، احصوا ، قلل يزيد العدد — افعلوا ما بدا لكم عسيتي كل شيء واحدا في هذا الضوء الساطع الذي يبشره الوداع في هذا الضوء الذي يكشفكم أول ما يكشفكم ويلزمكم حدودكم ، ثم يخلقكم دائما من جديد .

البست وليمة الخلاد قبل كل ليلة ما تتناولون كل مساء ؟ ألا ينهض الدليل على النهاية في أولادكم ؟ من ثم تحبونهم ، لأنكم محكوم عليكم مثلي ، لأنه من ظلالكم وحدها تتكون الارض الثابتة .

أين كنتم خلقاء أن تكونوا لو أنكم لم تعرفوا نهاية ؟ أين ؟ في غير مكان ذلك أن نهاياتكم هي التي أوجدتكم — كالحبل الملتف حول رقبتي — انتظر يا أخي ، انتظر بالله ! دعني أكمل ، دعني أشيد بالنهاية في هذا البكور المشرف ، دعني أحبك يا أخي ، يا صاحب الوجه المرتاع ، فالخوف هو الذي يحول انسياقك الى احترام ، البور قبل كل وداع .

ذلك انه قبل ان كنت ، كانت نهايتك يا أخي ، هي التي أعنتك ، ورعتك ، وصانتك ، وعدتك ، هي التي أحبتك ، وحملت من أكاذيبك حقائق ، وما تزال تجعلك احدى الحقائق . ما تزال تحبك وترعاك وتصونك . ولو حملتك النهاية ما كنت ، لكنك هكذا تكون ، تكون لأنك تزول ، ولأنك كنت ، ومن ثم ستكون . ولأن النهاية لا نهاية لها أبدا ، كذلك أنت لا نهاية لك . من ثم انسق يا أخي كثيرين آخرين ، حك رقما فوق تمثال ممزقة او اعلم أبياتا من الشعر . كم كنت تصبح عيشا لو لم يكن كل شيء يعمل عيشا ؟ هل كانت الشمس تطلع اذا لم تكن تغيب ؟ دعني احبك يا أخي ، دعني أحب نهايتي التي تعيني في قيد الحياة .

وانتم ايضا ، يا من أنتم هناك تحت ، انكم قبل أن تلتقوا تكونون في حمر كان . ان راسي اسرع فهو يلتقت من ثم اسهل . لفوا الحبل حول رقابكم حتى يروا الحمام الابيض يطير ، والريح تبدي ، وحتى يعي الورد الاحمر ، والورق الأخضر ، وحتى تبدروا الثمار كل مرة لمرة واحدة ، ولا تحصدوا مرة لكل مرة . دعوني احصد الآن يا اخواني ، دعوني احصد السماء التي لا تكون اعلى الا فوق اعمية المشانق . ان الحمام يحلق بمجرد أن تهبط الغربان ، ويمضي الليل ويبقى لي الصباح الأبلج يبدو في لمعانه كقطعة الذهب التي لا أريد بديلا منها ، ولا أريد عوضا عنها بيتا أو حقلا ، كما لا أريد لهذا البكور مساء .

ان الوقت يسرع ، والشمس تتسلل من الصقالة الى أسفل . انها تنساب بينكم وتحمل بعضها في متناولكم ، وتتحدر ، وتزداد في انحدارها عمقا ، وتعلو وتهبط ، وتزداد علوا ، وكلما

ارتفعت ، بعدت على الدوام في هبوطها فوقكم عورا ، حتى يتبين في الظهيرة التالية أول ما يتبين أن هبوطها وحده ينتزعها من التراب ثانية ، وانها يجب أن تهبط الآن لتبلغ السماء فوق ظلالها من جديد . لكني لا أنتظر هذا الوقت الطويل ، فلا يسعني أن يحرقني الضياء ولا أن أتصعد بعد الآن من جميع المسام عرقا . ادفعوا الألواح الآن من تحت قدمي واضربوا . قيم استمراركم في وقوفكم وتمريغكم شعثي بحملقتكم؟ لقد أضرمت النار فيها لم يكن لي . وشدوت بأغنية لم تكن تابعة مني من أجل ذلك اسوني ، أتسمعون ؟ لا أريد أن ابقى قيد ذاكرتكم ، فلن تدركني ، ولن تبادر الى ، ولن تعثني لا أريد أن أحيا في ثناء احقادكم ـ كلا ـ ومع ذلك اريد أن أعيش ، فانصتوا اذن ، ودعوا لحمي يهدأ في عظامي كي تقوم ، فاني أريد أن أعيش !

اسرع ، وشد الحبل ، ورد وثاقه . فلا أعود اصبو الى العرق أو أتوق الى الفرع في الليل اذا انتصف ، ولا أطلب احتراق السماء كرة أخرى لأرافقكم ، كلا . فارضوا هنا ؟ ان أقصر الحقول تبدت في الوداع ، وأعمق الغابات تنحم في حشب المشنقة .

صدقوني بربكم ؟ تعالوا الى ؟ ودعوا يا اخواني واحدا يحيكم لن تستطيعوا بعد اليوم خديعته ، واحدا يحرق أن يرضاكم في يومه كما انتم . تعالوا ، تعالوا تحركوا أخيرا ؟ شقوا الطريق لانفسكم بانفسكم .

مكانا لرسول الملك ! مكانا لمبعوثه ! هدوءا ، لا تقلقوني ؟ مكانا ، مكانا ـ لمن ؟ ماذا تريد يا أخي ؟ أتريد أن تسخر مني بأنك تفعل ما أنهيه ؟ ماذا تحلب لي ؟ ماذا تمسك في يديك الجاويتين ؟ تكلم ! بل لا تفعل شيئا ! لا تحل ضحكي الى دموع ، ولا دموعي بعد ذلك الى ضحك ! دع نفسك يرهق الكلمة التي تريد أن تنطقها . اني أرى في عينيك التائهتين ما تحلب لي ـ أليس حكمك هو المعو ؟ أقدر لي أن أعيش ؟ .

عد من حيث أتيت ! قل لمن أرسلك اني لا أريد أن يكون لي بالمعو شأن . فلم أعد أصدق جوف البلاد ، وصوء القمر ، ورائحة الليال . قل له اني لا أدع أحدا يتحدى مضحكا او يحملني أمي له من الرمل البليل قصورا ، فقد بات القيض الذي يعمر شطآنه أقوى مني . وفوق المد الذي يرسله هذا القيض لا أدرع قرطما . قل له ان أرضه حيث تكون لو أن قيضه انحسر لحظة . قل له انه لأحب الى ان أتوجه الى النوم مفتوح العينين من أن استيقظ مغمضهما . ولأحلق بي أن أقصد الى الملك الذي لا يتحد مهرجا ـ ان الملائكة لا تضحك . فاذهب اذن ولا تظل واقفا كمن يريد أن يكون مرآتي .

من أنت ؟ أتراك الحرمان الذي يولد اللهفة الحيل بعد الحين ؟ انك لأقصر من أن تضحي مرة أخرى ما لم أطلب . لست أريد أن أكون للهفة الصاعدة من الحرمان . لا ترفع كتفيك في استخفاف هكذا . خير من ذلك أن تقول لحلادي ان يعجل بشنقي كي اختفي من هنا . كي تستطيع أخيرا أن تخلو الى نفسك تحدثها . قل له ـ أين ذهب ؟ أين حلادي ؟

لقد انصرف حلادي ـ اختفى كاللص وسرق الحبل من عنقي ، نادوه ليرجع !

... لا يجوز ... أن يسلبني السير الأحمر قبل أن يكون لي . لا يجوز لأحد أن ينتزع من يدي مجرد فقر .

اتركوا . اتركوا . لاتسللوا ! لاتدعوني وحدي الآن في الحداد الذي أسمع على في صورة العفو ثم هو لا يرحمني . لقد رددت لثاني مرة الى الرغبة التي لم تحدني . ما زال السماء لا تحدني من الجهة بحيث ارضى أن أفقد الأرض التي تحت قدمي . لا مفر من أن أمضي في مسيري فوق الحجارة ، فوق هذه الأرض التي لا تشدني اليها بالقدر الكافي لأن أحلد فيها الى الراحة فلا تدعني لكواكب أخرى .

لقد جئت الى العالم مرة أخرى من يقول لي مرة أخرى ان القمر مصباح والسماء قبة ؟ من يعلمني اما الذي لا أعرف سوى البحر من حول الصخور جميعا ، أن أركن الى الصخر في البحر ؟

لا تدعوني وحدي الآن ! خذوني معكم ! الم أقل والحية ما تزال ملتفة حول عنقي ان اعماركم ليست أطول من عمري ؟ الم اقل ان كل خطوة من خطاكم هي آخر خطاكم ؟ هكذا ستبقى خطاي ايضا ... من خلفكم . هكذا لايسمح العفو الحكم ولا يلغي الحكم العفو . هكذا لا يسمق الخشب بلا نمو . هكذا يلغي ظله فوقنا جميعا ويقتسم ضوء الأنوار حيث يستقر .

لا تهربوا مني ! لا يدركم خوف من أن اضرم النار ثانية في محاصيلكم ، فسيحيلها حرى ايضا صفراء ورمادا . يبقى منها ؟

واني لأحب أن أترقب هذا في سكون .

أريد أن أبذر القرطم في رمل الغد ، وأحصد الصوامع المحرقة ، أريد ان ابني قصورا . أريد أن أكون مضحكا للملك ، وان أمرح في حدائقه ، وان الود به . أريد أن أنشر الأشرعة في الهواء الساكن ، وادير المحراث في كافة المستنقعات . أريد ان انظر الغد الذي هو اليوم ، وليهجرني اصدائي . أريد ان ارفع قيمتي حين تضع المدقات في الأحراس ، ثم امضي في سبيلي كما لو كنت آيبا الى بيتي .

وسواء أكانت السماء هي القبة ام كانت النار التي تحرق القبة ، فاني أريد ان أحصد ما وعدت ، أن أحصد السماء .